دار قصص وحكايات
للنشر الإلكتروني ٢٠٢١

الباخرة

سحر إبراهيم النصراوي

نص مسرحي

الباخرة

نَصّ مَسرحي

سحر إبراهيم النّصراوي

العنوان: الباخرة

النوع الأدبي: نص مسرحي

المؤلف: سحر ابراهيم النصراوي (نبذة)

قوة السرد: كتابات ابداعية

المُدقق اللُغوي: الكاتب بنفسه

اللغة: فصحى

التنسيق الداخلي والإخراج الفني: رمضان سلمي برقي

تصميم الغُلاف: رمضان سلمي برقي

سنة النشر: 2021

تم النشر بواسطة دار قصص وحكايات للنشر الإلكتروني2021

الدار غير مسؤولة عن أفكار الكُتّاب الواردة بإبداعاتهم؛ الكُتّاب وحدهم المسؤولون عنها.

الموقع الصفحة الجروب

التّصدير:

"إنَّ هذا الحُبَّ ، في كُلّ زمان و مَكان يشتَدُّ كثافةً كُلَّمَا اقتربَ من الموت"

(غابريال غارسيا ماركيز) الحُبّ في زَمن الكُوليرا

الفصل الأول

المشهد الأول:

يَدخُلُ الرَّاوي، حاملاً بيده جهاز تَحَكّم تلفاز كبير، يَجلسُ على أَريكة قُبالةَ الجُمهور، ينظرُ مليًّا في الجهاز ثُمَّ يَبدأُ بسَرد الحكاية.

– الرّاوي: أَنا لم آتي إلى هُنا اليَوم بغرض التّسلية، وَ لا لبَثّ المَرَح فيكم ، و إن لم يَرُقكُم ذلكَ .

أعلمُ أنّني و في خطابي رُبّما كُنتُ أفتقرُ إلى كثيرٍ من اللّباقة و لكنّني أعلمُ أيضًا أنّكُم و رُغمَ ذلكَ ستجدونَ لي الأعذار .

أَنا اليومَ هُنا في مَهمّة، مَهمّة ليست كَكُلّ المَهمّات، حتَّى أنَّها قد تَكونُ الأَخيرة أَو قَد لا تَكون .

المُهمّ هُوَ أنّهَا ، ليست الأُولى من جهة و من جهة أُخرى ، هيَ لا تُشبهُ أيًّا منَ المَهمّات التي تولّيت تنفيذَها سابقًا .

– قد تَتَساءَلونَ ، ما هي هذه المهمّة و لمَ قد تَكون الأَخيرة ؟

– يجبُ أن أُفكّرَ مليًّا قبلَ الإجابة .. ،لأَنَّني و إن أَكُن ، أَملكُ بعضَ الإجابات ، و التي لَم أَحصُل عليها بسُهولة و ببَساطَة إلاّ أنَّني مازلتُ غيرَ عابئ بتَشَارُكهَا .. ، سوفَ أفعلُ حينَ أَرى أَنَّ ذَلكَ أَصبَحَ ضَرُوريًّا .

لهَذا وَ قبلَ أَن أَبدأَ بسَرد القصّة و الشَّرح ، يَجبُ أَن أُخبرَكُم أَوّلاً بقصّة هذا الجهاز ، ذلكَ أنَّهُ و بعدَ طُول تَخمين ، ثَبَتَ عندي أنَّها يُمكنُ أَن تَكونَ بدايةً جيّدةً ، لقصّة ما ،لأنَّ البدايات حسبَ رأي هيَ الأصعبُ عَلى الإطلاق و في كُلّ أَمر، ليسَ لأنَّ البدايات هي التي قد تُحدّدُ النّهايات كما تَظُنُّ الأَغلبيّة ، لأنَّني صراحةً لا أؤمنُ بذَلك ، و لكن لأنَّ البدايات هي البَوّابةُ التي يُمكنُ أن نَدخُلَ عن طريقها ، حاملين حكايةً ، عبرةً أو رُبَّما حكمةً .

البداياتُ هيَ ما يُيسّرُ ، إمّا ، الدُّخولَ إلى عُقولكم و حثّها على التّساؤل و البحث ، و إمّا إلى قُلوبكم فَتُثيرَ في وجدانكم عَواطفَ و أَحاسيس لا يمكنُ تجاهلها و إن حاولتم .

غيرَ أنَّني و بصراحة لستُ بهذا القدر من الحكمة، و لا رهافة الحسّ .

لهَذا سَأكتفي بقصّ الحكاية و التي و كما سبقَ أن قلتُ قد تَكون المَنفذَ الذي قد أدخُل به إلى عُقولكم ، قُلوبكم أَو أَفشلَ ببساطة فَتَسُدّون دونيَ أبوابَ النّفاذ .

في كُلّ الحالات و بصراحة، لا أعبأ و بناء على ذلك سأكتفي بإتمام ما كُنتُ قد بدأته لاحقًا :

– لا يجبُ أن ننسى أنَّ البدايات أيضًا ، هيَ حُدود ما قد يفتحُ شهيَّتَكُم للمُشاركة ، وهيَ ذلكَ الخيطُ الرَّفيعُ الذي سَأُوهمُكُم من خلاله بما قَد تؤول إليه أحداثُ قصّة، أُحبُّ أن تَسمعوها .

هُنا و بعدَ جهد قرّرتُ أن أبدأَ كالتّالي ، فأنصتوا:

– هي ليست قصّةً كَكُلّ تلكَ القصَص التي قَد يرويها حَكواتي ، أو حَكيم ، لأنَّ الحكمَةَ في كُلّ الحالات لا تأتينا إلاّ حينَ تُصبحُ عديمةَ الجَدوى .

قصَّتُنا ببساطة ، هي واقعُ أنَّ المُعجزات تَحدثُ و باستمرار ، غيرَ أنَّ البَعضَ قَد لا يمتلكُ الجاهزيَّة الكافية ،إمّا لرُؤيتها أو لاستيعابها.

و المُعجزاتُ يا أصدقائي ، ليست براهين كما قد يظُنُّ البَعض، هي ليسَت تبريرًا لوُجودٍ و ليست نتاج عمل ..

ليست إجابات عن سعيكم الحثيث إلى المَوت ، و لا حتّى بديلاً عن.

ففي النّهاية ، لا أحدَ ينجو نحنُ فقط نصيرُ إلى حتفنا واحدًا تلوَ الآخروفقَ ترتيبٍ و تقديرِ .

المُعجزاتُ يا أصدقائي، هي ما نَتلقّاه، جزاءَ الصّبر، إنّها المُكافآت التي يمكنُ أن تجعَلَ لصبرك مَعنى و تُؤكّدَ لكَ أنَّ كُلّ ما تَحمّلتَهُ يومًا، كان ذا جَدوى و أنَّ حياتَكَ ليسَت عبثًا يُنثَرُ على سُطور سنين ، قد تتحوَّلُ إلى شبح يُذكّرُكَ بعجزك عندَ كُلّ مُنعَطَف .

المُعجزاتُ تحدُثُ وفقًا لاستعدادكُم و مدى جاهزيّتكم للإصغاء لهذا الكَون ،المُعجزة.. هيَ القُدرة على التقاط التّفاصيل النّورانيّة الغامضة و ترجمة رسائل الصّمت .

يرفَعُ الرّاوي الجهاز إلى فَوق ثُمّ يُنزلُه، ليَضَعَهُ على طاولة صغيرة قُبالتَهُ.

– الرّاوي : هذا الجهازُ يا سادتي ، ليسَ سحرًا و لا عجبًا ،هذا الجهازُ ببساطة حظّي من الميتة الأُولى ، أنا [1]هدير الماء ، كما كانَ يحلو للبَعض أَن يَدعوَني :

– ذلكَ الرَّجُلُ الذي يَنامُ داخل كُلّ منكُم مُطمئنًّا، آمنًا و لكن حبيسًا ، ذلك الرّجُلُ الذي يَنتظرُ لحظةَ انعتاق .

كنتُ حينها طريحَ الفراش ، عليلاً ، تلتهمُ الحُمّى جسمي ، و تنتهجُ الهَلوسةُ مداخلها إلى عقلي .

حيٌّ بينَ ميتتين ، أو ميّتٌ عالقٌ بينَ برزخين ، لكن في كلتا الحالتين ، الجهازُ كانَ و مازال حقيقيًّا .

– كانَ المرضُ حينها ، قد أَخذَ منّي كُلَّ مأخذ ، و بدأَ الموتُ يتسلّلُ إلى عُروقي دون إيذان ، مازلتُ أذكرُ جيّدًا كيفَ بدأَ يَلُفُّ جسمي ذلك الخدَرُ اللّذيذ، الذي يؤذنُ بالرّاحة بعد سير دامي ، لينسابَ ذلكَ الخَدَرُ إلى كُلّ أطرافي مُرفقًا بموجة منَ العَرق البارد، ازدادت معَها دَقّاتُ قلبي ، إلى أن أَصبحت أشبهَ بمطرقة ، تدُقُّ في صدري لترجّع صداها أذنايَ.

في اللّحظة التي كنتُ فيها جد جاهز و مُستعدّ لأن أُغمضَ عينيّ و أَمُدَّ يديَّ للموت ، سمعتُ صوتَ خُطوات.

---

[1] *كينكاس :* الشّخصيّة الرّئيسيّة في رواية " ميتتان لرجل واحد " أو " الرّجل الذي مات مرّتين " للكاتب *جورج أمادو*

في الحقيقة ، انزعجت قليلاً ، فقد شَوَّش علي ذلك الصّوتُ، تلكَ اللّحظةَ العَظيمة، لكنَّ الفُضولَ و البحثَ أَعاداني، و استبدَّت بي الرّغبةُ في البَقاء من جديد، حينَ رأيتُ وجهَ زَائرتي .

– مُمرّضَةُ، لم يسبق و أن رأيتُ وجهَها من قبل، أساسًا، كنتُ لُأألاحظَ ذلكَ، لأنها كانت على درجة كبيرة من الجمال، ذلك الجمالُ الذي يشتهيه العاقلُ و المَجنون و لم يكن ذلك بوحي من خيالي.

دَخَلت الغُرفةَ حينها و سألتني ، عن حالي ذاك الصباح ، و قد كان وجهُها ، لامعًا ، مُضيئًا ، ارتسمت في كُلّ أَهاليله

ابتسامةٌ واعدةٌ بالأَبَديّة.

أجبتُ بأن لا بأسَ عليّ و أنَ أَشدَّ ما يؤرقُني في مرضي ، الوحدة .. و الملل.

– ذلكَ أنّ الوحدةَ يا سادتي كانت و مازالت قَدَري، صحيحٌ أنَّها رفيقٌ مخلصٌ للمُلوك وَ للعُظَماء ، لكنّني و بأيّ من الأحوال لم أَكُن لا مَلكًا و لا عظيما .

– هي أيضا صديقةٌ وفيَّةٌ للنُّجُوم و لم أَكُن نجمًا ، رصدٌ لعينٌ للباحثينَ و ما كنتُ باحثًا .

لم أَكُن سوى رَجل ساقته الأقدارُ بعيدًا عن أَرضه ، لكنّ هذا أيضًا لا يعني أنّني كنتُ أمتلكُ أو أنتمي إلى أرض بعينها ، لكنَّ تلكَ المُمرّضَةَ ، جعلتني و

للَحظات، أتمنّى لو أَنّني أنتمي إلى تلكَ الأَرض ، حيثُ ظننتُ ذلكَ قَد يزيدُ من حُظوَتي عندَها .

لكنّها في الحقيقة لم تَكُن سوى أهواء مَحموم.

نظَرَت إليّ بشيء من الشّفقة ، و كانَ ذلك آخر ما يُمكن أن أتمنّاه،لكن على أيّة حال أنّى لامرأة بمثل جمالها أَن تَنظُرَ إلى مُنازِع يلفظُ آخر أَحلامه و يتقيّأ المَوتَ في كُلّ لحظة .

لم تُطل النّظر، أدخَلت يدها إلى جيب في مئزرها، و ناولتني الجهازَ قائلةً، و هي تناولهُ لي، خُذ ، تَسلّى إذا ، سَافر ، اعبر و تَأمّل ، و حينَ عودتك ، اجلب معكَ القصّة كاملةً ..

– و واصلت :

– هذا الجهازُ، عجيبٌ كيفَما وظّفتَه، لكنّكَ لن تَحتاجَهُ كثيرًا، ثُمّ وَجّهته إلى الحَائط و ضَغطَت على زرّ فيه، لتَنفَتح على الحائط شاشةٌ عملاقة غَطّتهُ كاملاً.

ارتعبتُ، فالتفَتتُ لأسألها عمّا يحدثُ، لكنَّ السّؤال ظلَّ مجهولَ الجَواب، حيثُ كانت قد اختفت، بينَما ظَلَّ الجهازُ ، مُلقى على الأرض .

هَلِعًا ، انتابتني نوبةُ صُراخ ، و كانت المفاجأة ، أن اختَفَت الشَّاشَةُ حالما بدأتُ بالصّراخ.

كانَ ذلكَ آخر ما أذكرهُ و كان آخر عهدي بالمُمَرّضَة.

– لكنّ ذلكَ لم يمنعني من التّفكير فيها في بعض المُناسبات ، حتَّى أنَّني مازلتُ آملُ حتّى الآن، أن نلتقي .

ينهضُ الرّاوي من كُرسيه، يحملُ الجهازَ و يُوجّهُهُ إلى رُكن في الحائط ثُم يضغَطُ على زرّ فيه، فيظهَرُ، حاملُ مَعاطف، ينزعُ معطفهُ و قُبَّعَتَهُ يُعلّقُهُما، ثُمّ يتقَدَّمُ قليلاً و يضغَطُ على الزّرّ من جديد فتظهَرُ طاولةٌ عليها طعامٌ، يجلسُ إليها الرّاوي و يُكملُ :

– الرّاوي: هذا بالضّبط ما أُسمّيه وليمةَ سكّير، دجاجًا مشويًّا، حقيقيا ، سلطات و كثير من الصّلصات الحارّة.

تناولَ قطعةً و واصل:

– طيّبُ المذاق، لكنّهُ غَدائي و ليسَ في نيّتي اقتسامُه معكم.

ما سَأتقاسَمُهُ مَعكم كَما سبق و أن وعدتُكُم هُوَ القصّة، فإليكم القصّةَ إذًا.

– قصّتُنَا أصدقائي، تدُورُ حولَ مدينة مُنتحبَة، مدينة ثكلى قُدَّت منَ الفَوضى و استوت على الخراب و الظُّلم.

مدينةٌ يَسودُها الفَساد، ترأَسُها عصابات ، دأبَت على تجفيف كُلّ منابع الحياة و أسبابها فيها .

– صائدو أحلامٍ ، اقتاتوا على دماء شبابها المثقلين بالهزيمة و بالرّغبة في الرّحيل .

– مدينةٌ يَقتُلُها الحُبّ، و يبعثُ الحقدُ في شَراييِنها الحياة .

– مدينةٌ تحيى على أنقاض تاريخ ، ..

لكنَّنَا أيضًا لسنا في وارد التآريخ ، لأنّ التَّاريخَ الحقيقيّ هو ما سَأرويه اليومَ .. ، لذا فلتكتُبوا عنّي إن شئتم ، أو فلتُنصتوا.

ما سأَرويه اليومَ يَتعلَّقُ بالخَطأ و الخَطيئة في تكرارهم الأبديّ .

أخذَ الرّاوي الشّوكة و السّكّين وشرعَ في تقطيع الدّجاج :

– سأُتمُّ غدائي بينما تُتابعون بعضًا ممّا عايشَته تلكَ المدينَةُ .

يحملُ الجهازَ و يضغَطُ على الزّرّ ، فتظهرُ شاشةٌ عملاقةٌ ، لتصيرَ الشّاشَةُ هيَ الرَّكح :

لتطهَرَ على الرّكح غرفةُ مكتب تجلسُ في رُكن منها امرأةٌ مُنكبَّةٌ على كتابة شيء ما .

موسيقى

صمتٌ تَربّعَ في القُلوب

حَجَب الأبصارَ عن الدّروب

ألقى على الأَكتاف ثقلا

ناءَ بالأهواء حملا

في القلب مُتّسَعٌ لقلب

غازل الصّمتَ بطلب

أهواك ، لو تسمع أُنادي

و سماءُك سهلُ امتدادي

أهواك ، أهواك ، أهواك

أهواك يا وطن القلوب الكادحة

أهواك يا وطن الصخور المالحة

أهواك ، أهواك ، أهواك

أهواكَ يا وطن العُيون القاحلة

أهواك يا وطن القلوب الراحلة

أبدا تتوق إلى سفينة تحملُها للضّفة الأُخرى

تقفُ الفتَاُة ثم تبدأُ بالتّحرك جيئةً و ذهابًا داخلَ الغُرفة، كمن يبحثُ عن فكرة ضائعة ، تَلتفتُ إلى صُورة مُعلّقة بجانب المكتبة ، ل[٢] *سيمون بوليفار*، ثم تعود إلى ورقَتها و تُواصلُ الكتَابة :

– أَرجو أَنَّكَ ما زلتَ على عهدك ...

تُطرقُ قليلاً ثُمَّ تُواصل :

– لا أريدُ أن أُطيلَ عليكَ و لا أن ألومكَ، سأكتُب فقط ما أحسسته ..، ما أحسسته يوم فقدتك...

أُحسستُ يومَ رحيلكَ بكمّ الفراغ الذي كُنتُ غارقةَ فيه .

صحيحٌ أنّني أثّثتُ وُجودي بكُلّ جميلٍ وقعت عليهِ عيناي ، كُلّ ما التَقطَهُ بصري ، صارَ مُلكًا خالصًا لي ، لكنّ الفراغَ الذي كان يلتَهمني من الدّاخل مُنذُ تَخَلّيتُ عنكَ ..

اجتاحَني فجأةً و لفّ كياني ، كما لو أنّني كيسٌ من الهواء .. وَ باتَ كُلُّ همّي لقاء أخير و إن يكُن وداعًا .

رَحلتَ دونَ أن تُودّعني ، هكذُا كُنتَ و مازلتَ ، رجُلاً عجولاً ..وَ مُتهوّرًا .

ما الذي كُنتَ تظُنُّ أنّكَ ستجدُهُ وراء البحر .. ؟

---

[٢] *سيمون بوليفار :* أو البَطل مُحرّر الشّعوب و هوَ عسكريٌّ و سياسيّ فنزولي هُو مؤسس و رئيس كولومبيا الكبرى من أهمّ الشّخصيّات التي لعبَت دورًا في تحرير الكثير من دُول أمريكا اللاّتينيّة التي وَقعَت تحتَ طائلة الحُكم الإسباني

أطنانًا من الذّهب ، بُيوتًا و مزارع .. ؟

لكنّكَ لم تَعبأ بذلكَ أبَدًا ، ففيما كانَ رحيلُكَ .. ؟

– عَمّا كُنتَ تبحثُ ؟ ألم يَكُن من الأيسر لو أنّكَ اخترتَ أن تعيشَ سعيدًا؟

– كانَ ذلكَ مُمكنًا ، لكنّ أنانيّتكَ حجبت عنكَ كُلّ سُبل السّعادة و عنادُكَ حالَ دونَ رُؤيتها .

– أعلم أنني رُبّما لم أُقدّم الكثير، أو أنَّ ما قدّمتُهُ، كانَ أقلَّ من أن يُذكرَ أو حتّى يُشارَ إليه ، لكنّكَ و في أيّ من الأحوال ، لم تُقدّم شيئًا .

– كنتَ عظيمًا .. ؟ ؟؟

– تَهيّأَ لكَ ذلكَ و سوّلت لكَ أنانيّتُك الاستمرار في رفض كُلّ سُبُل السّعادة اليسيرة .

– رُبّما كُنتَ عظيمًا ..، لكن ليسَ هُنالك عُظماءُ أمامَ الموت..

– الجميعُ يبدؤونَ الرّحلَةَ مُترجّلين ، قد يُحالف بعضَهم الحَظَّ فلا تكون الطّريق طويلةً، هذا كُلُّ ما في الأمر، الوسيلةُ الوحيدة التي يُمكنُ رُبَّما أن تيسّرَ وعورةَ الطّريق هيَ أن تجعَلَ قلبك وعاءا خالصًا للإيمان ، لليقين بأن الله موجود.

كُنتَ خائفًا من أن لا يفضي ذلكَ اليقينُ إلى حقيقة ترجوها ، فلم تتكبّد حتّى عناءَ المُحاولة .

من الطّبيعي جدًّا أن نشعُرَ بالخوف ، ..حتّى الأبطالُ يشعُرونَ به ، لكنّهُم يجعَلونَهُ مُحفّزًا للتّقدّم و رُبّما للانتصار أيضًا .

صمتت بُرهةً ، و قد تغيّرت ملامحُ وجهَها لتكتسيَ بمسحةٍ من الحُزن ، ثُمّ واصلت :

– أنتَ لم تَكُن خائفًا .. لقد كُنتَ يائسا ، يأسٌ يُخالطُهُ الفُضول لكنَّ الأمل قد يعاودُ طريقه حتّى إلى قلب يائس حينَ يُوقنُ أنَّ الفُضول في الحقيقة ليس إلاّ واحدة من أحابيل النور .

– أنا لن أيأسَ على أيّة حال ، .. و سأظلّ أنتظرُ عودتَك .

– لم لا تعود ؟

– عُد فنجمع شتاتنا، و نتقاسم ما تبقىّ من متاع قلبَينا..

– عُد و احمل لي معكَ كُلَّ ذَلكَ المَرح المُستهتر..

– عُد، فأُحبّكَ من جديد، كأنَّني ما خلقت إلا لذلك..

– عُد فما عدتُ خائفةً، [٣] *رَبَّما يكونُ الحُبُّ مُخيفًا كما الموت ، لكنّهُ و بخلاف الموت ، يُخفي هاته الحقيقةَ بفورة الرّغبة و الإثارة .*

– ما أشدَّ حُضوركَ اللّيلة، إنَّه أشدّ عندي من وطأة دقّات السّاعة.

رَفعت رأسَها و هيَ تُخمّنُ ثُمَّ عادت إلى الوَرقة.

---

[٣] *سيغمون بومن :* عالم اجتماع بولندي

– عُد ، لعلَّ المُعجزة تتحقّق فينا فَنهب قَلبَينا مُناصَفةً ل[٤] *آيروس* و [٥] *ثاناتوس*

– توَقّف عن مُقاومتي أرجوك ..و عُد ..

عُد فما أمسَّ حاجتي إليك..

أحتاجك..

– المخلصة على الدوام :[٦] *فرمينا* .

[٤] *آيروس، إيروس :* هوَ إله الحُبّ و الرّغبة و الجنس في الميثولوجيا اليونانيّة و هو نذير " كوبي دو " في الميثولوجيا الرّومانيّة و معَ أنّهُ لا علاقَةَ تُذكرُ لهذا الإله بالطّقوس الدّينيّة ، إلاّ أنّهُ من الشّخصيّات المحبوبة في الأدب و الرّسم و النّحت و الموسيقي ***Eros***

[٥] *ثاناتوس :* و هو ابن آلهة اللّيل *نيكس* في الأساطير اليونانيّة و كانَ عبارةً عن إله يُمثَّل بروح لها أجنحة يُجسّدُ الموت غير العنيف ، حيثُ كانت لمستُهُ ليّنةً مثل شقيقه التّوأم *هيبنوس*

[٦] فرمينا : أو فرمينا دازا، هي إحدى الشّخصيّات الرّئيسيّة في رواية الحُبّ في من الكوليرا للكاتب غابرييل غارسيا ماركيز .

موسيقى

لحظةٌ تفصُلني عنّي ، عن مُهجتي

لحظةٌ تقتُلني و تَمضي

تغزلُ من أَفكاري و نَبضي

بهجةً لمماتي

لحظةٌ تفصلني عنّي ، عن يَقظتي

تمخرُ في العُباب و تَمضي

سفينةً للآتي

بحرُها موجٌ و جنون

عانقَ الحُلُمَ المَسجون

لحظةٌ تفصلني عنّي ، عن مُهجتي

تغزلُ من أَفكاري و رَوضي

بهجةً لمَماتي

المشهد الثاني:

تنطفئ الشاشة من جديد ليظهر الرّاوي حاملا بيده ، سيجارا ، يتجه إلى ركن في القاعة يَهم بالجلوس ثم و كمن تذكر شيئا يعود إلى كرسيّه .

– الرّاوي : آسف ،نسيت أنّكم هنا ، على أيّة حال لم تنتهي الحكاية بعد ، لكنني و قبل أن أخوض في تفاصيلها أكثر ، أودّ أن أعود إلى نفسي قليلا ، و أن أخبركم قبلها باسمي ، لأن ذلك يعني لي الكثير ، أنا الرّجل الذي أُقيمت في موته مأدبتان ، واحدة لأهله و أخرى لمُريديه ، أنا الرّجل الذي سُرقت جثّته ليقام له مأتمان واحد حقيقيّ و آخرُ مُزيّف يشوبه الكذب و الرّغبة في طمس تاريخي الحقيقي.

ميتتان و مأتمان ، لجواكيم سواريس داكونيا ، أو كنكاس هدير الماء .

– أنا[٧]جواكيم سواريس داكونيا ، لكن هذا أيضا ليس كلّ ما في الأمر ، المهمّ هنا ، هو أنّني الرّجل الذي ، تنازع الفقراء و الأثرياء على امتلاك حُزنه ..

بعدَ بُرهةٍ من الصّمت

يحمل الرّاوي جهاز التحكم من جديد

يوجّهُه إلى الخلف، يضغط على الزر، لتُفتح الشاشة من جديد.

[٧] كنكاس هدير الماء كان الاسم الذي أطلقهُ عليه أصدقاء و هذا هو اسمهُ الحقيقي :
جواكيم سواريس داكونيا

فيظهر من الشّاشة شابّان ، بدى أحدهما جدّ منشغلٍ بترتيب أغراضه و جمعها داخل حقيبة ، بينما وقف الثاني قبالته :

– ألم يثنك حديثي و لا شرحي عن الرحيل يا [8]فلورينتينو .

– فلورينتينو : لا يا بابلو ، فلا أراه زادني إلاّ رغبةً و شوقا إلى البحر .

– هل تعلم يا صديقي،[i]يكمن بؤس هذا العالم و عظمته في أنه لا يهب الحقائق أبدا و إنّما الحُب.

و أنا البائس الأوفر حظا لأنني لا حظيت بإجابات و لا حظيت بما ينقذني من عبثية طرح السؤال، لكنني سأكون بخير، أعدك، أعدك بأنني ربما سأكون الناجي الوحيد ؟

– ألم تر أن المياه تلتهم الأرض و تمضغ في كل ثانية شبرا ، ربما أُذكر لاحقا على أنني الناجي الوحيد من هاته الحُمّى و من هذا الوباء.

– بابلو : حسنا سأفترض جدلاً ، أنّك على حق ، ماذا لو أنّك تعثر الآن يا فلورينتينو، على حبيبة ترجوها ؟

توقف ، فلورينتينو ، لحظة ، ثم واصل شغله .

– فلورينتينو : سأصطحبها معي و أرحل و سنقتفي أثر النجوم لعل إحداها تدلنا على وطن ، و إن لم نجد فسنبتني لنا واحدا .

8 فلورينتينو أريثا: بطل رواية الحُبّ في زمن الكوليرا

صمتَ بُرهةً ثُمّ واصلَ :

– في كُلّ الأحوال ، سيَكونُ الأوانُ قد فاتَ ..

– بابلو : أنت عازم على الرّحيل منذ زمن ، عرفت ذلك يوم رأيتك تحمل صورة الباخرة .

– فلورينتينو : أنا في حاجة للرّحيل ، لأنه لم يعد هنالك ما يشدّني إلى هاته الأرض ،أسباب الرّحيل باتت أثقل ميزانا في قلبي من أسباب البقاء ، شيء ما بداخلي ينبئني بأنّ هاته الرحلة ستكون خلاصي، أنت صديقي يا بابلو ، أعلم أنك ستغفر لي ذلك .

– بابلو : و أنت لست نبيّا ، و هذه الأرض لم يغمرها الماء بعد و لا حلّ بها الطّوفان .

– فلورينتينو : لم تغمرها المياه بعد ، لكن الحُمّى أتت على يابستها ،و أنا تعتريني رغبة لا تقاوم في أن أبدأ حياتي من جديد .

– بابلو : كيف أستطيع أن أُثنيك عن عزمك ؟

– فلورينتينو : لا تستطيع ، تمنّى لي التوفيق .

– بابلو : سأفتقدك .

– فلورينتينو : أنا أيضا يا صديقي ، لا تنسى أننا تقاسمنا من ملذات الحياة و آثامها الكثير ، هذا كفيل بأن يُخلّدنا في نفس درجات الجحيم .

سنجتمعُ في مدينة[٩] ديس أو في [١٠]الدّائرة الثّانية من الجَحيم .

ابتسم ، بابلو و ضحك فلورينتينو بصوت عال ، و تعانق الاثنان .

[٩] وتحت نهر ستيكس، وصف دانتي مدينة سماها ديس والتي يقع ضمنها بقية دوائر الجحيم. ويحرسها الملائكة الساقطون. وفي الملحمة، يصف دانتي العقبات التي واجهها لدخول القلعة والتي لم تتحقق إلا بتدخل ملائكة السماء. وهي دلالة لدخول منطقة الخطايا التي لا يمكن للعقل أو الفلسفة من تفسيرها.

[١٠]يقبع في الدائرة الثانية كل من ارتكب خطيئة الانصياع لشهواته أو من يسمح لشهوته بالتحكم بعقله.

موسيقى

ربما كان ينتظرني مساء

أنام فيه بِدعَة

في مدينة قديمة

فأموت مسرورا

ربما كان ينتظرني مساء

لا أستسلم فيه لعذابي

تحملني فيه نجمة الشمال

إلى المنزل الأخضر

ربما كان ينتظرني مساء

تلفه غيوم النّشوة

تخلق فيه الرغبة

لأصير الرحالة القديم

تنطفئ الشاشة و يظهر الراوي من جديد و قد جلست قبالته ،فرمينا .

– الراوي : هل كنت حقا تنوين تركه حين اتخذت القرار .

– فرمينا : لم أغادره إلى غيره ، اخترت و كان يحق لي أن أنتصر لعقلي .

– الراوي : فأخبريني بحال قلبك اليوم إذا ؟

– فرمينا : أنا راضية .

– الراوي : بماذا ؟

– فرمينا : بتلك العبودية المتبادلة التي يفرضها علينا الحب .

– الراوي : فهل صرت من عبيد الحب ؟

– فرمينا : بل من عبيد ذكراه ، لكن ذلك لم يثنني عن مواصلة الطريق و التقدم .

– الراوي : و هل حصلت على ما كنت تبحثين عنه ؟

– فرمينا : لم أكن أبحث عن شيء محدد ، كنت أقتفي أثر بعض الإشارات و كلها ساقتني بعيدا عنه .

– الراوي : تنوين العودة ؟

– فرمينا : بل سأواصل التقدم .

– الراوي : و كيف سيكون حال قلبك ، عندها ؟

– فرمينا : سأكون راضية .

– لا شيء سيعود كما كان عليه بعد الآن .

– أرى وجه العالم يتغيّر ، الخارطة تتغيّر و حتى هذا الفراغ الجليدي الباهت الذي لفّ المدينة ردحا طويلا من الزّمن ، بدأ يتلاشى و يختفي شيئا فشيئا لتحلّ مكانه ذكرى عن عظمة الحياة التي افتقدناها ، مُنذ عمّ الوباء .

– أعداد الوفيات ترتفع في كلّ يوم من مدينة إلى أخرى ، و الموت اللاّمرئي ، يتسلّل إلى قصور الأثرياء و لا يلقى أيّ مقاومة .

– ربّما وجب عليّ الثّناء على هذا الوباء الذّي ساوى بين الجميع و ألغى كلّ الفوارق ، إنّه عادل و هذا أقلّ ما يمكن أن يقال عنه .

– حمل هذا الوباء معه كثيرا من الحكمة ، من الخوف و من الحياة أيضا .

– لا شيء سيعود كما كان عليه ، هذا الوباء أعطى للموت شكلا جديدا و أعطى للحياة شكلا جديدا أيضا .

– المستنيرون ، سيقولون أنّه ليس سوى قدر، شكل جديد من أشكال القدر ربّما .

أنا رأيت فيه معجزة .

– الرّاوي : كيف ذلكَ ؟

– فرمينا : كَشفَت كُلّ عورات هذا البَلد ، و أزالَ حُلمَ التّرف الكاذب الذي كُنّا نقتاتُ عليه .

– الرّاوي : و ماذا أيضًا ؟

– فرمينا : بفضله عَرَفتُ أنّ الأشخاص ، أهمّ مما يُقدّمونهُ .

– الرّاوي : أراهُ أكسبك الحكمة أيضًا .. [11]الموتُ هوَ ما أعطى للحُبّ شكلهُ كما أعطى للحياة شكلها ، مُحوّلاً كُلّ ذلك إلى قدر.

[11] ألبير كامو

الفصل الثاني

المشهد الأول :

داخل حانة صغيرة تعج بالبحّارة المُتعبين ، و بائعات الهوى ، جلس ،فلورينتينو ، و بيده كأس خمر ، وهو تارةً يوجه حديثه إلى السّاقي و طورا إلى رُوّاد الحانة :

– فلورينتينو : أنا لست في حاجة إلى وطن ، كل ما أنا في حاجة إليه اليوم ، حبيبة ،حبيبة ، أُرخي رأسي على صدرها آخر الليل و أنتحب دون أن تسألني.

تقترب إحدى بائعات الهوى ، منه و تهمس في أذنه :

– بائعة الهوى : أجيد لعب دور الأم .

فيدفعها ، فلورينتينو ، برفق و يجيبها .

– فلورينتينو : ليس اللّيلة .

ثُم يواصل حديثه هذه المرة إلى السّاقي ، الذي بدى عليه شيء من الاهتمام.

– فلورينتينو : هذا جزء من عملك ، لو تدري ؟

الإستماع إلى ترّهات ، المخمورين ، و المحمومين ، ترّهات آخر اللّيل و أحلام المُنكسرين و المُتطلّعين إلى الرّحيل ..ة الآملين النّجاة من براثن الوحدة ..

– هل تعلمُ أنّ الوحدة أشدُّ قتلاً من الموت .. ؟

يومئ السّاقي برأسه و يبتسم و يستمرّ في عمله دون أن تغفل عينه ، عن ، فلورينتينو ، و عن كل أولائك الذين بدأ الهذيان يسيطر على عقولهم إمّا بفعل الحُمى أو بتأثير المشروب .

– فلورينتينو : إذا ، لنعد إلى حديثنا ، قلتُ أنّ كلّ ما أنا في حاجة إليه اليوم ، حبيبة ، حبيبة أو ربّما أمّ ..، فلا وطن لمن لا حبيبة له ، لا وطن لمن لفّ قلبه جليد النّكران ، لا وطن لمن جُرحت روحه و امتطى الألم أنفاسه ، لا وطن .. ، و حتّى السّماء لن تتّسع ، لن تتسع لمُتألم مُفرد .

– بائعة الهوى : و ماذا عن الإله ؟

– فلورينتينو : مازلتُ أبحثُ عنه .. هوَ لم يظهر لي بعد ..

– بائعةُ الهوى : نحنُ نحملُهُ بداخلنا ..

– فلورينتينو : أين ؟ .. هل وجدته ؟

– بائعة الهوى : لا نحتاجُ للبحث عنهُ هُو قابعٌ في قُلوبنا ، لا نحتاجُ لرُؤيته لأنّنا نحتضنهُ .

– فلورينتينو : و ماذا عن كُلّ أولائك الذين يدعونَ إليه ؟

– بائعةُ الهوى : لن يجدوه ، إنّهُم يُضلّلونَ الضّعفاء .

– فلورينتينو : وحدها الحبيبة ، يمكن أن تعاود وصلك بالله ، بأمّك و بذلك البشري الذي كنته ، حين كنت مغفّلا ، لهذا يجبُ أن أبحثَ عن حبيبةٍ أوّلاً .

عاود ، فلورينتينو النّظر إلى بائعة الهوى ، التي ظلت مُتسمرة بجانبه ، عانقها، و طبع قبلةً على جبينها و واصل حديثه إليها باهتمام أكبر :

– فلورينتينو : أيّتها القدّيسة ، هل تعلمين أنّ الحمّى ، أتت على كلّ شيء ، الكلّ يهذي ، و أنا جدّ محتاجٍ إلى حبيبة أقاسمها عبئ وجودي ، إلى أن أنتهي ،أو تنتهي ، أو ينتحر كلانا ، بحمّى الرغبة في العيش على يابسة قاحلة.

– بائعة الهوى : أتظنك ستكفّ عن الطّلب إن أنت حصلت على واحدة ؟

– فلورينتينو : أساسًا حصلت على كلّ ما كنتُ أطلبه سابقًا و في كلّ مرة كنت أحسّ فيها أنني بتت أقرب منها ، كانت تبتعد .

– بائعةُ الهوى : حبيبتُكَ مُراوغةٌ إذًا ؟

– فلورينتينو : لم تكُن مُراوغةً ، كانت خوفًا .

– بائعةُ الهوى : خوفًا ؟ و ممّن ؟ منكَ أنتَ أيّها الملاك ؟

– فلورينتينو : لستُ ملاكًا ، و لم أستطع يومًا أن أهبها الإحساس بالأمان في رفقتي .

– بائعةُ الهوى : و ما الذي منعكَ من ذلك ؟

– فلورينتينو : كيفَ أستطيعُ أن أهبَها شيئًا ، لا أملكُهُ و لا أعرفُ حتّى كيفَ يبدو ؟

ثُمّ واصل :

– كُفّي عن الثّرثرة ، فكُلّ ما أريده ، هوَ أن أنقذ ما تبقّى بروحي من إيمان بأنّ الإله طيّب

– بائعة الهوى : ويحك و هل تشكّ في ذلك ؟

– فلورينتينو : أولائك الذين يدعونَ إليه ، جَعلوني أحسّ بأنّيَ مسخ و بأنّهُ ليسَ أكثرَ من جلاّد .

هُنا تدخّلَ أحدُ البحّارة قائلاً :

– إنّها حُجّتُهُم لبدء حربٍ جديدة .

– بائعةُ الهوى : الآنَ و بعدَ أن أتى الوَباءُ على أكثرنا ، لن يحتاجوا لشنّ حربٍ .

– البحّار : لديهم أتباعٌ ، يسيرونَ و يبُثّون الرّعب في كُلّ مكان ، لقد صاروا جيشًا .

– فلورينتينو : و لهذا أنا محتاج إلى حبيبة ...أريد أن أُقاتلَ من أجلها و أن نمجدَ الإله سويّة .

نظر فلورينتينو، إلى جمع البحارة المترنّحين في الحانة و واصل :

– في مَا مَضى كُنتُ أخاف أن تُفرّقَنا الحروب ، لأنّ الحروب في الحقيقة ليست سوى استحقاق ، يُؤدّيه فقراءُ يُساقون إلى حتفهم كالقطيع ، لشَحّ القُوت ، ضدّ فقراءَ ، يملكونَ مالاً .

– أمّا اليوم ، فكم تمنيت لو أنّ الحرب لم تنتهي أبدا حينها كان يمكن للرّحمة أن تُساق إلى قلبك مع رصاصة تتلقاها ، فتموتَ بطلا .

–: اليوم نحن لا نموت رميًا بالرّصاص ، بل بجرّة قلم و قرار. ما الذي سيحل بكلّ هؤلاء البحّارة ، بعد خَوصصة الميناء و بيعه ؟

– بائعة الهوى : سيتحوّلون إلى متسوّلين .

– فلورينتينو : سيأتي يوم تنهار فيه كلّ قصور النّبلاء القديمة أمام تكاثر المتسوّلين ، الأبله هو الذي يمتلك تصوّرًا كونيًّا عمّا ينتظره ، ليسوا سوى مجموعة مُغفلين ، لم تعوّدهم انقلابات التّاريخ في كرّه و فرّه على توخّي الحذر أمام البُطون الفارغة .

– بائعة الهوى : هكذا هُم الأثرياء دائما .

يحتضنها ، فلورينتينو ، و يطبع قبلة على يدها .

– فلورينتينو : هم ليسوا أثرياء ، ليسوا سوى فقراء يملكون مالا أيتها القديسة

.

يأخذها من يدها و يطلب منها ، أن تُشنّفَ آذانه بنغم ،

– فلورينتينو : ما كانت تلك الأغنية ؟

– بائعة الهوى : إنّها ترنيمة .

– فلورينتينو : رافقيني إذا و ترنّمي .

يغادران الحانة و هي تترنّم :

موسيقى

يشتدّ التّوق إلى السّماء

أحضانها مأوى الفقراء

للعاشقين فيها صلاة

للحالمين فيها حياة

يشتد الحبّ بالفقراء

داءا يضلل مثل وباء

للحالمين فيه ممات

للمكلومين فيه سبات

المشهد الثاني :

ينتهي النّغم بدخول الرّاوي إلى الحانة حيث يجلس في نفس المكان الذي كان يجلس فيه ، فلورينتينو ، يطلبُ من السّاقي قنّينة مشروب ، ثم يسحب من جيبه جهاز التّحكّم و يضغط على الزّر العجيب فيتسمّر كلٌّ في مكانه ، رُوّاد الحانة، بائعات الهوى، و حتّى السّاقي كما لو أنّ الحياة سُحبت منهم فجأة و تحوّلوا إلى لوحة ،أو معرض منحوتات .

يسكب الرّاوي المشروب في كأسه ثم يبدأ بالتّجوال بينهم و الكأس في يده.

– الرّاوي : ما أجمل أن تنعم بشيء من الهدوء بعد كلّ هذا التّعب و الصّخب .

هذا ما كنتُ في حاجة إليه ،.. شيءٌ من التأمّل الذي قد أستخلص منه حكمة ،.. قد أتشاركها معكم و قد أحتفظ بها لنفسي ،.

إنّ حياتي على أية حال و في مُجملها ، لم تخلُ من التّأمّل و من شيء من الفلسفة الخاصّة .

– وفلسفتي في الحياة تقوم ، على أنّني قد أموت في أيّة لحظة ، و هذا تحديدًا ما دفعني لالتهام الحياة بنهم عجوز .

– أنا رجل يعايش الموت في كل لحظة ، لهذا فإن لدي تقديرا خاصًّا جدّا للحياة ، أثمّنها كثيرًا .

– في لحظات اليأس التي كُنتُ أمرُّ بها ، كانت تتوقّف عندي ساعة الحياة فجأةً ، لتحلّ محلّها ساعاتٌ من الموت الطّويل ، و حتّى المُحيطون بي ، يتحوّلون إلى مجموعة أشباح .

– كم أحبّ تتبّع إيقاع الموت و سماع وقعه في قلب عاشق.

– تعلمون ... ؟ أجمل ما في الموت ، هو أنّك حين تموت ، تحظى أوتوماتيكيا باحترام النّاس .

الموت يمسح آثار الماضي السّوداء و يصنع لدى المُتتبّعين ذاكرة جديدة ، ذاكرة ناصعة البياض .

يعود الرّاوي إلى كُرسيّه و يضغط على الجهاز من جديد ، يعود إلى الحانة صخبها و حالةُ الهرج و المرج كما لو أنّ شيئا لم يكن ، يعلو صوت أحد البحّارة الذي يبدأ بالاقتراب تدريجيًّا من الرّاوي :

– البحّار : هاي أنت يا صاحب البزّة الفاخرة ، أنت متطفّل على هذا المكان ، ما الذي أتى بك إلى هنا ؟

يعلو صوت بحّار آخر من بين الجموع دون أن يظهر وجهه :

– البحّار الثاني : إنّه المالك الجديد للميناء .

يقترب البحّار الأوّل من الرّاوي ، يلامس البذلة الفخمة بشيء من الازدراء .

– البحّار : هذه البذلة ، لن تصلح أبدًا للإبحار ، قد تكون أكثر ملائمة للدّفن ، ثم يفرقعُ ضحكةً و يدفع الرّاوي من كرسيّه حتى أوشك على الوقوع ، يقف الرّاوي موجّها الحديث إليه.

– الرّاوي : أنت مخطئ ، أنا لست سوى زائر ، عابر ، حتى أنّني لست حيّا ، كما أنّك قد أصبتَ في ما يخصّ البذلة .

ثم مدّ الراوي يده في محاولة لمُصافحة البحّار :

– الراوي : اسمي ، هدير الماء ، كينكاس هدير الماء ، فما اسمك ؟

– البحار : أنت ميت ، إذا ؟

– الرّاوي : ميتتان حتّى أكون دقيقا .

فرقع البحّار ضحكةً ساخرة ،

– البحار : و هل ترى من أحياء في هذا المكان ؟ ما من أحياء هنا ، و تحديدا هنا .

يرتفع صوت أحد البحّارة :

– إنه المطهر هنا ، يضحك و يضحك معه كلّ من في الحانة .

– أنت في المدينة المطهر .

يعود البحّار الأوّل ، إلى سؤاله :

– البّحار : و أي الخطايا تراك ارتكبت حتى تنزل بهاته المدينة؟

يسحب الرّاوي الجهاز من جيبه من جديد ، يضغط على الزرّ فيتوقّف المشهد من جديد .

– الراوي : كان يجب أن أتوقّف هنا ، لأن هذا البحار قد أثار مسألة مهمّة جدّا ، موضوعًا ، كان علي أن أتوقف عنده منذ البداية ، لكنّ أحاديث جانبية ربّما ؟ كانت قد أبعدتني .

– أودّ حقا لو نناقش هذا الموضوع سويّا ، أصلُ الخطايا أو جنسُ الخطيئة .

– أنا طبعا لست ، [١٢]جون كليماكوس و لا أنا بصدد كتابة [١٣]كوميديا إلهية جديدة ، لكنني قد أكتفي [١٤]بحديقة المباهج الأرضيّة ، كدليل على توثيق هذه الخطايا لأنّ الصّور تستطيع أن توثّق في التقاطه ما لا يمكن لصفحات أن تحفظه.

و حتّى بالنّسبة للخطايا ، فإنّني لست في وارد تعدادها لكنّ الحديث ، يتفرّع أحيانا و يأخذنا إلى أبواب قد توصد أمام أي استفهام لهذا سأتحدث فقط عن واحدة ، هي حسب رأي أصل الخطايا ،إنّها خطيئة الجشع .

---

[١٢] و يُطلقُ عليه أيضًا يوحنّا السّلمي : من أهمّ كتاباته : كتاب " سُلّم الفضائل "

هي شعر ملحمي ألفه دانتي أليغييري ما بين ١٣٠٨ حتى وفاته عام ١٣٢١.

[١٤] حديقة المباهج الأرضية أو جنة المتع الأرضية : هو العمل الفني الأكثر شهرة للفنان الهولندي هيرونيموس بوس، عبارة عن لوحة زيتية رمزية بحجم ٢٢٠ في ٣٨٩ تم رسمها بين سنوات ١٥٠٠ – ١٥٠٥

يعتبر هذا العمل الفني ، المتضمن لمغزى أخلاقي، من أكثر أعماله غموضًا وتعقيدًا وجمالاً

– ذلك أنّ الجشع هوَ ما قادَني إلى هُنا .. [15]الدّائرة الأولى من الجحيم .

فالجشعُ جُرمٌ في حقّ الله ، جرمٌ في حقّ هؤلاء البحّارة ، الذين حال نهمُ أصحاب البطون الكبيرة بينهم و بين القوت ، بينهم و بين أبواب النّعيم ، جرمٌ في حقّ أكثر من نصف البشريّة ، كلّ الأحرار يتحوّلون إلى عبيد عند أعتابه.. ، لكن .. من يأبه ؟

كان الجشعُ و سيظلّ ، خيط النّار الذي يفصلُ الأرضِيّينَ عن السّماء ، يفتح بوّابة الشّياطين و كلّ الشّرور ..

حتّى أنّهُ قد يجلبُ الوباء أيضًا ..

فالجشع ، عدوّ الحُبّ ، أصل كلّ الخطايا ، ذريعة الطمّاعين و طعمٌ يلقيه المُرابون إلى الباحثين عن الفتات ، الجشع ، أبُ الخطايا ، و وَقودُها .

و هذه المدينة ، ضحيّةُ أُخرى من ضحاياه .. هذه المدينة يا أصدقائي ضحيّةُ جشعٍ عظيم .

ينطفئ الضّوء تدريجيًّا و تنبعث موسيقى .

---

[15] تسمى هذه الدائرة بالحد بالإنجليزية
: **LIMBO**
إذ أنها أقرب دوائر جهنم إلى الجنة. ويقبع بها كل مسيحي بالمولد من دون عمادة أو الوثنيين الأطهار. وبسبب عدم معموديتهم، يبقون يعيشون من دون عذاب ولكن بشكل ناقص يمنعهم من دخول الجنة.

موسيقى

عين للأفق ترنو و الحظ ما واتاك

والنهر بات ضيق و الحب قد نآك

هل في الفصول فصل نسيمه قد واساك

""""

و الصبر من فولاذ و القول كالأسلاك

و الصمت من فولاذ و القول من هلاك

""""

أسلاككم أيقظت صمتي

أصفادكم حررت صوتي

""""

و القلب صفحات و الذكريات من ورق

و الله ضاع منا في ثنايا جيب المرتزق

هل في الفصول فصل نسيمه يطرد الأرق

""""

يعطر سواد ليلي يناجي نجمات الأفق

و الصمت من فولاذ و الجرح قد نطق

""""

أسلاككم أيقظت صمتي

أصفادكم حررت صوت

الفصل الثالث :

داخل غرفة صغيرة تتوسّطها أريكتان جلس ، فلورينتينو و جلست قُبالته ، فرمينا ، صامتين و قد اعتلى وجهيهما شيء من التجهّم و الحزن ، بينما تُسمع موسيقى هادئة منبعثة من مشغل اسطوانات ، وُ ضِع في ركن من الغرفة.

رفع ، فلورينتينو رأسه ، نظرَ إلى فرمينا ، بشيء من الحُنوّ ثم ربّت على كتفها و نهض مُتّجهًا إلى الباب .

– فرمينا : إلى أين ؟

أجاب فلورينتينو دون أن يستدير و واصل تقدّمه نحو الباب .

– فلورينتينو : إلى حيث ، أستطيع أن أرتاح .

– فرمينا : الحانة ؟

– فلورينتينو: ربّما .

نهضت ، فرمينا ، في مُحاولةٍ للّحاق به .

–: تمهّل ، لم نكمل حديثنا بعد ، لقد انتظرتُ هذا اللقاء كثيرًا ، و حكتُ حوله ، أساطيرَ من السّعادة ، لماذا تريد له أن ينتهي بهذا الشّكل المأساوي ؟

– فلورينتينو : أتعلمين ؟، يجعلنا الحب أحيانا نرى في المحبوب فضائل ليست فيه .

الحوار قد انتهى فعلاً ، و المأساة ، أنتِ من كتبها ، خطّط لها و نفّذها ، أنا اكتفيت باحترام قرارك و هذا ما سأفعله اليوم أيضًا .

– فرمينا : لم أكن أدرك قيمة ما كنت أمتلكهُ ، لكنّني اليومَ أدركت .

أنا لست نادمةً على ما حدث ، لأننا ما كنا لنكون سعيدين على أية حال .

هنا توقف ، فلورينتينو و استدار ،

–: عن أية سعادة تتحدثين ، السّعادة ليست محض صدفة أو هديّةً تقع من السّماء ، السّعادة هي ما نصنعه ، ما نتّخذه من قرارات و نتعايش معه لاحقا ، إما لننتصر له ، أو لننهيه هذه هي السعادة الحقّة ، فهل فكرت في ذلك يوما؟

هل سعيت إليه أو تخيّلته حتّى ؟

– فرمينا : كنتَ ماجنًا ، شابّا طائشًا ، سكّيرًا، كُلّ همّه البحث عن اللّهو ، ناهيك عن مغامراتك اللّيلية التي كانت حديثَ المدينة ، كيف كان لي أن أختارك ؟

لم لا تحاول أن تنظرَ إلى الموضوع من زاوية أخرى ، زاويتي .

تراجع فلورينتينو إلى أن صار قبالتها :

– فلورينتينو : هذا ما فعلته حقّا ، و لهذا عدت ، و لهذا غفرت لك .

– فرمينا : أنا لم أخطأ ، ما الذي غفرته لي ؟

– فلورينتينو : بلا أخطأت ، أخطأت في حقّ نفسك و في حقّ كلّ ما كان يمكنُ أن يصير عليه كلانا .

على فكرة ، كان يمكن أن نكون سعيدين .

– فرمينا : و ما أدراك ؟

– فلورينتينو : و ما أدراك أنت ، أنّ العكس صحيح ؟

عاد فلورينتينو للجلوس ،

– فلورينتينو : كلّ ما أطلبه منك اليوم ، هو قلبك خالصًا لي دون جشع ، و أساسًا ما كنت يوما لأطلب أكثر من ذلك .

كان ذلك ليكون النّعيم الذي أغتسل فيه من خطاياي ، كان بإمكانك إنقاذي لكنك اخترت الهروب ، فهلاّ تفعلين اليوم ؟

تعود فرمينا للجلوس بجانبه هذه المرة و يعلو صوت الموسيقى قليلا يعمّ الصّمت الغرفة برهةً ، تضعُ فرمينا رأسها على كتف ، فلورينتينو و تنطفئ الأنوار تدريجيا .

هنا يدخل الراوي ، متأبّطًا حقيبةً ، حاملاً الجهاز بيده ، يضغط كالعادة على زرّ فيه ، لتعود الإنارة شيئا فشيئا إلى الغُرفة تحديدا عند الأريكة حيثُ كان الحبيبان يودّعان بعضهما على أمل اللقاء .

– فلورينتينو : ستنطلقُ الباخرةُ قريبًا ، سأكونُ بانتظارك .

– فرمينا : سأعدّ نفسي و سأوافيك حالما أجهز .

– فلورينتينو : بل حالمَا أطلبك ، ثم يغادر الغرفة .

في اللّحظة التي غادرَ فيها فلورينتينو دخلت و من نفس الباب الممرّضة و ظلّت واقفةً عنده ، نظر الرّاوي إليها كما لو أنّه فهم مغزى زيارتها .

تعود فرمينا ، للجلوس فيجلس الرّاوي بجانبها ، ثم يوجّهُ الحديث إلى الجُمهور بينما تعود ، فرمينا إلى كتاب كانت ، تقرأه.

– الرّاوي : حقيقةُ يبدو كل هذا ساذجُا و لكنّه يدلّ على كثيرٍ من الإقدام .

" الحُبّ مملكة قاسية و شحيحة ، الضّعفاء لا يستطيعون الدّخول إلى ملكوته"

– شخصيّا لم أفعل و لن أفعل سوفَ أكتفي بالمُلاحظة و التعليق من حين إلى آخر .

هذا قد يمنحني شيئا من الحظوة التقييميّة و ستتّسم تعليقاتي بشيء من الرّصانة التي يتملّقها المشاهدون .

و هذا تحديدا ما سيساعدني في تقييمي لصيرورة القصّة ، تأزّمها ، انفراجها و كل ما يدور حولها من تطوّر في الأحداث.

يُطرقُ الرّاوي برهةً ثم يسترسل :

– بالحديث عن التطوّر ، يجدر بي الإشارة إلى أنّه كان أحد أهم القوانين التي قلبت مسار التاريخ منذ اكتشافه .

التغيّر و التّغيير جاءا كدليل على أن العقل و المعرفة ضرورتان ترافقان هاته الآلية ، فبفضل المعرفة توصّل الناس إلى تمييز سبل كثيرة للعيش و مجاراة الطّبيعة و الحياة . الشّيء الوحيد الذي لم يستطع الإنسان امتلاك مفاتيحه هو المُستقبل ، فحاول استقراءه من خلال بعض المُعطيات المعلومة و المُتاحة في الحاضر و هذا ، كان أكبر أخطاءه .

أو لعلّه خطأه الفادح الأكبر .

حيثُ أنّهُ إذا كان لابد من بناء فكرة عن المستقبل من خلال معطيات عينيّة متاحة فلنلتزم بشيء من التفاؤل على الأقلّ . جهلنا بما يحمله المستقبل و سمة الغموض التي تلفّه لا يجعل منه بالضّرورة وحشًا مُخيفا .

هنا تتحرك فرمينا ، تقف و هي تحمل الكتاب ثم تبدأ بالقراءة منه بصوت عال :

– فرمينا : و أنت يا صديقي حين تختار ، لا تختار فعلاً ،كل ما في الأمر أنك تنتقي على مهل ، ما دُفعتَ لاختياره .

و سيعيب عليك البعض ،تشاؤمك ، لأنّه من السّهل أن تلبس ثوب الرّضا وتستعين بالقَدَرية على تقبل وجودك المتعب ، لكن ماذا لو أن هذا الثّوب ، بات أضيق من صدرك ساعة حنق ؟

– ماذا لو أنك ما عدت تريده بديلاً عن الانتظار ؟

و أنك ببساطة ، خلعته إلى عُري الحقيقة .

– أيّ الطرق تراها ستحملك إلى حتفك مطمئنًّا حينها ؟

يقف الراوي بدوره و يتمشّى في الغرفة ثم يردّ و كأنه يخاطبها:

– شيء من التفاؤل لن يضير في شيء ، على العكس تمامًا قد يمنحنا شيئا من الطّاقة الإيجابية التي نحن في حاجة إليها بجرعات متفاوتة حتى عند الرّحيل .

– لم كل هذا التشاؤم ؟ في اللّحظة التي كان يجب أن تكون الأكثر سعادة في تاريخ حبيبين ؟

– أهوَ التساؤل عمّا ينتظرهما ؟

إنّهُ الجشع من جديد ، التّشاؤم و الجشع سيظلاّن أكبر الآفات التي يمكن أن تحوّل حياة أيّ بشريّ إلى حلقات لا متناهية من جحيم قُدّ على مهل .

– ثم أساسًا ما الذي يمكن أن ينتجه ذهن مُنهك ؟

– هل يمكن لتُرّهاتٍ كتبت في الفجر أن تتحول إلى نبوءة ؟

– ما الذي سيجعلها ذات قيمة ؟ ،فورة غضب عارم ؟

– كلها كلمات ، رُصفت و نسّقت عشرات المرات أو أكثر ، الشيء الوحيد الذي يمكن أن يجعل واحدة مُختلفة عن الأخرى ، المرارة ، شدّةُ الألم ، و درجة الحزن الذي خُطّت به .

و حتى هذا ، لا يمكن أن يكون سببًا كافيًا لتحويل حياةٍ بأكملها إلى محطّة انتظار .

لهذا سأحاولُ إعادة الصّياغة ، صياغةُ الوضع .

يسحب الراوي الجهاز من جيبه من جديد ، يوجهه إلى المذياع ، يشتغل المذياع و ينطلق صوت المذيع مليئا بالهلع .

– المذيع : ذلك أنّ الأمطار التي هطلت بغزارة عشيّة اليوم قد حوّلت المدينة إلى أرخبيل تنهشه الأمواج من جهة و يلفّهُ الضّباب من جهة أخرى.

ألقت فرمينا الكتاب من يدها و نهضت مسرعة باتّجاه الباب .

– فرمينا : خوسّي ، أين أنت يا خوسّي ؟

هنا أجابها الرّاوي من خلفها :

– الرّاوي : لقد غادر خوسّي البيت منذ العشيّة ، أنسيتِ أنّك قد صرفته ؟

– فرمينا : لا يجب أن يتخلّى المرء عن شخص مثله ، بمثل وفاءه ، لكن من أنت ؟

– الرّاوي : أنا كينكاس ، هدير الماء .

– فرمينا : و ما الذي تفعله داخل بيتي ؟ و كيف دخلت ؟

– الراوي : حضرت لأنني علمت أنك بحاجتي ،سبقَ و أن التقينا ؟

– فرمينا : أجل أظُنُّ أنّني أعرفك ؟ لقد سبق و التقينا ، أليس كذلك ؟

– الرّاوي : نحن نلتقي باستمرار ، لكنّك تنسين ، لا بأس على أيّة حال ، أخبريني ، فيما احتجت ، خوسي ؟

– فرمينا : أردته ، أن يبحث عن فلورينتينو .

– الرّاوي : لقد سبقك فلورينتينو و جمع من البحّارة إلى الباخرة و طُلبَ إليّ أن أرافقك ، إليه .

هُنا ظَهرت المُمرّضةٌ من جديد ، نظرَ إليها الرّاوي ، ثُمّ إلى فرمينا .

– فهل أنت جاهزة ؟

– فرمينا : لم أعدّ نفسي و لا أمتعتي .

جَلست فرمينا و هيَ تنظُرُ إليه :

– أنا حقًّا مُنهكة ، ما هذا التّعبُ الذي حلّ بي فجأةً ؟

– أظُنّني في حاجةٍ للاسترخاء قليلاً قبلَ أن نُغادر ، فالطّريق طويل ؟

عاودت فرمينا الوقوف ، و حاولت التّقدّم بشيء من الثّقل ،

قصدت الباب و أكملت :

– سأعدّ الحقائب بسرعة لم يعُد لدينا منَ الوقت ما يكفي و الباخرةُ ستنطلقُ قريبًا ، فهل يمكنك انتظاري ؟

– الرّاوي : لقد انطلقت الباخرةُ فعلاً و منذُ ساعات ثُمّ إنّهُ لا حاجة بك للحقائب يا آنستي ؟

– فرمينا : بعضا من أمتعتي إذا ؟

– الراوي : و لا حاجة بك إلى هذه أيضا .

– فرمينا : فلورينتينو هو الذي أخبرك بذلك ؟

– الراوي : فلورينتينو ، سبقك و أوصلته بنفسي ، و هو بانتظارك ، طلب منّي أن أخبرك بأنه فقط المتألّمون يستطيعون تقديم أفضل ما لديهم ، لا أعلمُ لماذا تحديدًا ؟

لكن هذه كانت رسالتَهُ لكِ ..

– فرمينا : بدأت تخيفني ، ما الذي تقصده بذلك ؟ لقد رأيتُ فلورينتبنو منذُ قليل و تحدّثنا ، هوَ بانتظاري ، أهوَ بخير ؟

إلى ماذا تُلمّح ؟

ظلّ الرّاوي صامتًا و هي تدورُ من حوله :

– هل كانت آخرَ كلماته ؟ أنا لستُ مجنونة .

وضعت فرمينا يدها على جبينها

– الراوي : إنّها الحُمّى .

– فرمينا : أنا أهذي إذًا ؟ أهوَ الوباء ؟

بعدَ بُرهةٍ من الصّمت أجابها الرّاوي :

– أُرسلتُ بمهمّة أحاولُ أن أقوم بها على أتمّ وجه و أن أنال الرّضا .

عاودَ النّظرَ إلى المُمرّضة و قد صبغَ الحُزنُ وجهه .

– فرمينا : حسنًا و ما قصة البحّارة الآخرين الذين يرافقونه ؟

– هل استخدمهم ؟

– الرّاوي : لا،فلاَ خدمَ على ظهر السّفينة ، آنستي ، الكل سواسيةٌ هناك .

عادت فرمينا للجلوس على الأريكة ، و قد اكتسى شيء من السّهوم ، الحزن و اليقين وجهها .

– فرمينا : حسنا ، ماذا لو أنّني غيّرتُ رأي و أنّني عدلتُ عن اللّحاق به ؟

– الرّاوي : يحق لك ذلك ، و لست أنوي التأثير عليك ، لكنّها تصبح المرة الثانية التي تخلفين فيها وعدك .

– فرمينا : آسفة ، أنا حقًّا آسفة ، كُلّ ما في الأمر أنّني لست مستعدّةٌ للرّحيل الآن .

–الرّاوي : و هل كنت يوما مستعدة ؟ لا أحد يجيد الاستعداد للرّحيل ، إنهم فقط يرحلون .

– فرمينا : منذ متى و فلورينتينو على متن الباخرة ؟

– الرّاوي : منذ مُدّة .. ، و ليس عليك سوى اللحاق به إذا كُنت تُكنّينَ لهُ مثلما يُكنُّ لك من الحُبّ .

– لقد انتظرك طويلا ..

– فرمينا : ربّما ما كان عليه أن يفعل ، ألم تقُل أنّ الخيارَ يعودُ لي ؟

– ثُمّ ماكانَ ذلكَ ؟ لقد التَقيتُهُ منذُ قليل ؟

– الرّاوي : إنّها الحُمّى ، أو لعلّهُ شبحُهُ ، فالأشباحُ تظلُّ تتوقُ إلى الأماكن التي سبق و أن تعَلقت بها قُلوبُها .

نظرَ الرّاوي إلى المُمرّضة التي أومأت بالإيجاب :

– الرّاوي : خلافًا لكِ ، أنا عندَ وعدي ، لكن سيَتوجّبُ عليكِ أن تبذُلي من نفسك شيئًا لتأجيل رحيلك ، فهل أنت مُستعدّة ؟

– فرمينا : أجل أنا مُستعدّة ، خمّنت قليلاً : ولكن ما الذي أستطيعُ أن أبذُلهُ ؟ عمّا يجبُ أن أتخلّى ؟

عاودت فرمينا الجُلوس و هي تارةً تنظُرُ إلى الرّاوي و طورًا تُغمضُ عينيها ، ثُمّ وبعدَ بُرهةٍ من الصّمت ، نظرت إليه و هي شبهُ واثقة و سألتهُ :

– هل الذّاكرةُ شيء يُمكنُ أن أتخلّى عنهُ ؟

– الرّاوي : الذّاكرة ؟ ؟؟ الذّاكرةُ هيَ كلّ ما أنت عليهِ و إن يكُن بعضُها لئيمًا.

– فرمينا : بحزم ، الذّاكرة .

– الرّاوي : لكن هل أنتِ مُتأكّدة من أنّك تُريدينَ ذلكَ حقًّا ،تريدينَ التّخلّي عنها ؟

– فرمينا : أجل ، لقد حسمتُ أمري .

– الرّاوي : مُبتسمًا بخُبث ، إنّهُ الجشعُ من جديد ، لكنّك لن تولدي أو تُبعثي من جديد لكتابة أُخرى جديدة .

– فرمينا : ما الذي سيحدُث حينها ؟

– الرّاوي : ستعيشين كشبح ..

– فرمينا : لكنّني سأعيش ؟

– الرّاوي : كشبح ..

– فرمينا : أُفضّلُ العيشَ كشبح ، على أن تقتُلني ذاكرةٌ حديديّة ..

كانَ الرّاوي عندَ وعدِهِ ، فقَد تأجّلَ رحيلُ " فرمينا " مرّةً أُخرى ، و منذُ ذلكَ اليوم و فرمينا تعيشُ كشبحٍ ، و لا تُغادرُ الميناء ..

تمّت على بركة الله في ٢٠٢١/٠٧/١٤

عزيزي القارئ...

كلمةٌ أردتُ التّوجّه بها إلى قُرّاء هذا النّصّ الذي يحظى بمكانةٍ جدّ خاصّةٍ في وجداني .

هذا النّصّ رُبّما ليسَ نتاجًا فكريًّا خالصًا لي و لا إنتاجًا أدبيًّا خالصًا لي ، فالشّخصيّاتُ في النّصّ مُستعارة و ذلكَ ليسَ لعجزٍ في مُخيّلتي و لا لعدم قُدرتي على ابتداع شخصياتي الخاصّة و بناء سيكولوجيّاتها بما يتماشى مع الأحداث و الإطار .

ليسَ خفيًّا على أحد ما مرَّ به العالمُ و الوطنُ العربيّ و خاصّةً في العشريّة الأخيرة من تغيّرات جيوسياسيّة و اجتماعيّة و اقتصاديّة لتكونَ خاتمة هذه الأحداث جميعًا الوباء الذي حوّلَ الحياة إلى محطّة انتظار .

بدأتُ العملَ على هذا النّصّ منذُ سنة ٢٠١٣ ليُواكبَ معي و رُغمَ قصره كُلّ الانفعالات و التّغيّرات التي مرّت بها نفسيّتي تحت تأثير مجموع التّغيّرات الكُبرى التي نُعايشُها منذُ سنة ٢٠١١ و إلى هذا الحين .

قُمتُ بإلغاء العمل عليه أكثرَ من مرّة و قُمتُ بتغييره أكثرَ من مرّة و أكثرَ من مرّة قُمتُ بمسحه تمامًا ، لكنّهُ أبى إلاّ أن يُعاودني و يُراودني فكُنتُ أعودُ إليه غير عابئة بالإعادة من جديد .

ليَكونَ موعد لقاءنا الجديد سنة ٢٠١٨ ، صفحاتٌ قليلة ، كُتبت على عجلٍ ، بكثير من الحنين و من الحُزن .

أعمالٌ كثيرة وُلدت بعدهُ و رأت النّور قبلهُ ، بينما ظلَّ يتقدّمُ ببطء و لكن بثباتٍ هذه المرّة كما أرجو .

يظلُّ مُطلقُ الحُكم لكُم .

هذا النّصّ هوَ أيضًا تحيّةُ عرفانٍ بالجميل و تحيّةُ تقديرٍ و إجلالٍ لكاتبين كانَ لهُما شديدُ التّأثير فيّ على صعيد شخصيّ و هُما من ألهماني الرّغبة و بدون أدنى شكّ في أن أصيرَ روائيّة .

معهُما يتحوّلُ السّرد إلى حياةٍ تكادُ تُعايشُها و تلامسُ تُرابَ مَدائنها و هذا جُلُّ ما كنتُ أصبو إليه .

فالحياةُ أشبهُ بقطعةٍ بلّوريّةٍ تعكسُ كُلّ ما نمرُّ به ، ما نُعايشهُ من أفراح و أتراح و انكسارات، قد تتركُ شروخ و انكسارات .

" من تلكَ الشّروخ يتسلّلُ النّور " فاجعلوهُ يغزو كُلّ عتمة الانتظار ..

نحنُ نُريدُ لهذا النّور أن يصيرَ بوصلة الحياة الجديدة ..

نبذة عن المؤلفة

سحر النصراوي، فنانة تونسية من مواليد ١٩٨٢ .

موسيقية و أديبة ، روائية ، كاتبة مسرحيّة و شاعرة متحصله على إجازة في علم النفس و دبلوم موسيقى عربية اختصاص غناء .

متكونة في فنون الأداء الركحي و الغناء البولي فوني

شاركت في عدّة دورات تكوينية في العلاج بالموسيقى بفرنسا جامعة Paul Valéry

احترفت الغناء منذ أواخر التسعينات إلى أن كونت مجموعتها الموسيقية الخاصة " نينوى " سنة ٢٠٠٩ .

لديها العديد من الانتجات و المشاركات الموسيقية على صعيد وطني و عربي و العديد من المشاركات المسرحية كممثلة ، مساعدة مخرج و كاتبة مسرحية.

أخرج لها نص مسرحي تحت عنوان " جرعة حياة " ، المخرجة التونسية أحلام البجاوي .٢٠١٧

أعمال سابقة:

– صدرت لها رواية تحت عنوان " سمسارا " بلبنان سنة ٢٠١٨ .

– ٢٥– ١١ " نص مسرحي _ دار قصص وحكايات للنشر الإلكتروني